

مكانة ترتيب المعاني النحوية في النفس قبل الألفاظ في نظرية النظم
دراسة لبعض الآيات القرآنية

The significance of arranging grammatical meanings in the soul before
words in systems theory – a study of some Qur'an verses.

السعيد حمزة

SAID HAMZA

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية (الجزائر) ، said.hamza@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/10/04

تاريخ الاستلام: 2025/06/24

الملخص: يتناول هذا المقال مكانة ترتيب المعاني النحوية الوظيفية في العقل أولاً ثم ترتيبها في بنية الألفاظ ثانياً و ترتيبها على طريقة مخصوصة هو الذي يحدّد المعنى ، ويجعل الصور البيانية ترقى إلى مستوى الشعرية من خلال امتزاج النحو بالبلاغة . وهدف البحث هو توضيح مكانة هذا الترتيب وتطبيقه على آيات من القرآن الكريم ، وإبراز أهمية نظرية النظم التي تجمع بين النحو والبلاغة والنقد والأسلوب (شعرية اللغة) . ويختتم البحث بعدة نتائج أهمها : ترتيب المعاني النحوية هي البنية العميقة التي تفسر المعنى ، وأن النحو الامتيازي هو الآلية التي تنتج شعرية (جمال) الصورة البيانية.

كلمات مفتاحية: ترتيب ؛ معاني النحو ؛ النظم ؛ تركيب ؛ البلاغة ؛ الشعرية .

Abstract

This article discusses the functional syntactic structures in shaping poetic imagery first and then arranging them within a particular frame work like words , the true structure that determines the meaning and produces the aesthetic images that elevate the poetic level . The research aims to clarify the role of this arrangement and its application to verses from the holy Quran , which highlights the importance of this theory that combines syntax , eloquence and style . The research concludes with results , the most important of which is : the arrangement of the syntactic structure represent the underlying and deep frame work from which meaning emerge and is conveyed , and that poetic imagery serves as the mechanism that enhances the poetic image aesthetically .

Keywords: arrangement, grammatical meanings, systems, composition, rhetoric, poetic.

المؤلف المرسل: السعيد حمزة ، الإيميل: said.hamza@univ-bejaia.dz

1- مقدمة:

حظيت نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني بالدراسة والاهتمام ، ولا يزال الأمر كذلك مستمرا من طرف الباحثين في مجال اللسانيات ، والبلاغة والأسلوبية ، وحتى النقد ؛ وصاحبها ظلّ يدافع عن نظرية التركيب النحوي الامتيازي (syntaxe) ، وبه فسّر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ، وجعله دعامة أساسية تقوم عليها البلاغة بمعنى أنّ حسن إتقان تأليف جمل الكلام ، وصياغة تراكيبها على طريقة مخصوصة هو طريق البلاغة والإعجاز اللغوي .

وفي هذا السياق فإنّ ترتيب المعاني النحوية في النفس قبل ترتيبها في اللفظ بوصفها إحدى الأسس الهامة في نظرية النظم نالت حيزا كبيرا من حديث الجرجاني خصوصا في دلائل الإعجاز إذ يرى أنّ المتكلم يرتب نسق قواعد النحو ؛ وبالأحرى يجعل الكلمات النحوية (معاني النحو) وفق نظام نحوي صوري في عقله ثم يحول هذا النسق القواعدي التجريدي (مفعول به مقدم + فعل + فاعل) مثلا إلى نسق بنوي صوتي هو التركيب اللغوي أو الجملة المنطوقة بالقول (زيدا أكرمته) ، ومن ثمة فإنّ اختيار معاني النحو كالفاعلية والمفعولية ، والحال ترتيبا خاصا لا يخرج عن قواعد النحو هو الذي يحدد المعنى ، و يصنع شعرية النص القرآني وجماله ، وهو سر إعجازه اللغوي وتميزه النحوي التركيبي .

ويبدو أنّ ترتيب المعاني في النفس (العقل) أولا قبل ترتيبها في اللفظ ثانيا إشارة واضحة من عبد القاهر إلى البنية العميقة والسطحية في النظرية التوليدية التحويلية لنعوم تشومسكي (Noam Chomsky) ، لأنّ البنية العميقة تشمل الدلالة والشكل التجريدي للقواعد التي يتم توليدها في عقل المتكلم أولا ثم تحويلها على البنية السطحية المنطوقة من خلال التتابع الصوتي للجملة ثانيا . ومن هنا تظهر أهمية نظرية النظم القائمة على ترتيب المعاني النحوية قبل ترتيبها في اللفظ في التأسيس لبعض مفاهيم وإجراءات اللسانيات التوليدية التحويلية .

2- الإشكالية والمنهج :

إنّ الإشكالية الجديرة طرحها في هذا السياق هي : ما هو النظم ؟ وماذا يعني عبد القاهر الجرجاني بترتيب المعاني في النفس قبل ترتيب الألفاظ ؟ أهى المعاني القاموسية الدلالية التي يشملها اللفظ أم هي المعاني النحوية الوظيفية كالفاعلية ، والمفعولية والحال ، ووظائف الصبغ الصرفية والأدوات ؟ وإذا كان ترتيب المعاني في النفس يعني المعاني النحوية الوظيفية ، ما الذي يجعل منها معان نحوية خاصة وليست عامّة ، تصنع المزية و التفرد للنص القرآني ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اتبعت المنهج الوصفي من خلال تعريف نظرية النظم ، ووصف أسسها خصوصا ترتيب المعاني النحوية في النفس (العقل) قبل ترتيبها في اللفظ ، وأيضا ملاحظة وتحليل الوظائف التي تقوم بها المعاني النحوية وتُمَيِّز طرائق تركيبها المؤثرة في تحديد معنى الآيات القرآنية وجمال بلاغتها وسحر أسلوبها .

3- مفهوم النظم وأهميته :

تقوم نظرية النظم على دعامة أساسية هي النحو إذ أثبت بما لا يدع مجالا للشك أنَّ النظم في جوهره هو النحو في أحكامه ، لأنَّ الناظم يتكلم وفق معرفته الضمنية لقواعد النحو ووجوهها المختلفة أي إنَّه يتَّبَع قوانين النحو بعد المعرفة المسبقة لها ، فنحن كأفراد نقوم بنظم الكلام وفق قواعد النحو المتعارف عليها وفي هذه الحالة فإن ثنائية (النظم / النحو) يقابلها (الكلام / واللغة) عند دوسوسير (desaussure) ، والثنائية نفسها تعني الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي في النظرية التوليدية التحويلية لنوع تشومسكي (noam chomsky) ؛ فالكفاءة اللغوية هي المعرفة الضمنية التي يمتلكها المتكلم / السامع بوصفها نظاما من القواعد التي تُمكن المتكلم من إنتاج وفهم مآلنهاية من الجمل ، أمَّا الأداء الكلامي فهو التطبيق الفعلي للقواعد النحوية وتجسيدها من خلال إنتاج الكلام . وهذا ماذهب إليه الجرجاني قبل تشومسكي عندما عرّف النظم بأنَّه وضع الكلام وفق قوانين النحو والعمل على تطبيقها وتجسيدها أثناء الكلام ، و أنَّ المتكلم وهو ينشئ النظم (الكلام) لا بد أن يعرف مناهج النحو التي رُسمت - (حُدِّت) - له ، فيعمل بها ولا يزيغ (يثبطَقها) ، ولا يخلّ بشيء منها حتَّى لا يفسد النظم . وبعبارة موجزة أليس العمل على قوانين النحو بعد معرفة مناهجها وقوانينها هو أداء كلامي لكفاءة لغوية ؟ .

إنَّ الإخلال بقواعد النحو وخرقها يؤدي إلى فساد النظم ، والعمل بها وعدم الزيغ عنها يجعله صحيحا يصل إلى درجة الامتياز والإعجاز اللغوي في القرآن الكريم . ولكي يثبت ذلك راح الجرجاني يدافع عنه بالقول أنَّ اختيار أفضل القواعد المناسبة للتعبير عن المعنى هو الذي يجعل نظاما ، أو كلاما أحسن من الآخر ، أو يتميَّز عنه ، بمعنى أنَّ النحو معيار لتحديد سلامة النظم العادي والفني معا ، فهو الذي يحدد شعرية النظم وجماله ، فلا تفاوت في جمال الأسلوب دون وجود كفاءة نحوية تكشف له الوظائف الجمالية والإمكانات اللامحدودة للتركيب والترتيب (حسن ، 2014، صفحة 214) يتوخاها المتكلم أو يؤديها لإنتاج أرقى التعبيرات الفنية وأفضلها .

ولذلك فإنَّ تفاوت جمال الأسلوب والتعبير من متكلم لآخر يعود إلى أنَّ الأداء الكلامي يكون فرديا يعكس الكفاءة أو المقدرة النحوية الخاصة - وليس العامة - التي يتفاوت فيها المتكلمون مادام أنَّها الآلية المعول عليها في إنتاج شعرية اللغة وصناعة جمالها في نظر عبد القاهر الجرجاني .

ويجب الإشارة في هذا السياق إلى أن حديث عبد القاهر الجرجاني عن نظرية النظم ليس في دلائل الإعجاز فقط وإنما في أسرار البلاغة أيضا مستعملا مصطلحات أخرى كالتأليف ، والتركيب ، والترتيب ، وجميعها تحوم حول نظرية النظم ، أو التركيب النحوي (syntaxe) .

4- النحو والبلاغة :

يرى صاحب دلائل الإعجاز أن النحو هو الذي يصنع شعرية البلاغة العربية حيث فسّر جمال الصور البيانية ، وأرجع سرّ تميّزها إلى خصوصية في طريقة التركيب النحوي وليس جمال بنية اللفظ أو الاستعارة في حدّ ذاتها . وفي هذه الحالة فإنّ ترتيب المعاني النحوية في النفس (العقل) أو البنية العميقة المتمثلة في قواعد النحو والمعنى هي التي تُحدّد البنية السطحية عند التلّفظ بالاستعارة . ففي الآية الكريمة " واشتعل الرأس شيبا " [سورة مريم : الآية 4] ، جمالها يعود إلى بنيتها العميقة وهي : الفعل (اشتعل) + الفاعل (الرأس) + التميّز (شيبا) المرتبة في العقل للدلالة على وصف الرأس كلّ بالبياض ، بدلا من : اشتعل + الفاعل (شيب) + المضاف إليه (الرأس) . يقول عبد القاهر : " الاستعارة والكناية والتّمثيل ، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النّظم ، وعنها يحدث وبها يكون ، لأنّه لا يُنصّور أن يدخل شيء منها في الكلم ، وهي أفراد لم يُنوخ فيما بينها حكم من أحكام النّحو ، فلا يُنصّور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد أُلّف مع غيره " (الجرجاني ، 1991 ، الصفحات 356-357) ، ومن ثمة فإنّ جمال المجاز أو شعريته يكون خاضعا لفاعلية ترتيب المعاني النحوية ، أي إنّ طريقة التركيب النحوي هي مصدر الصّور البلاغية الراقية في القرآن والتي عجز العرب عن الإتيان بمثلها بوصفها إحدى تجليات النّظم ، وبمعنى آخر فإنّ التركيب النحوي المتميز وما يقتضيه من ترتيب للمعاني النحوية في العقل هو صاحب الفضل في تلك المعجزة اللّغوية .

5- ترتيب المعاني في النفس قبل ترتيبها في اللفظ :

يجب الإشارة في البداية إلى أن إطلاق النفس من طرف الجرجاني نابع من عقيدته الأشعرية التي ترى أنّ الدال مخلوق حادث ، أما المدلول فهو صفة أزلية قديمة من صفات الله ، أي إنّه كلام الله النّفسي وبالتالي فترتيب المعاني في النفس قبل ترتيبها في اللفظ ، هو تلك المعاني النحوية المرتبة مسبقا أو الموجودة في العقل ، علما أنّ المعاني التي تحدث عنها الجرجاني نوعان :

1- المعاني المعجمية أو مدلول الألفاظ .

2- المعاني النحوية كالفاعلية والمفعولية والحال والصيغ الصرفية وغيرها .

فبالنسبة للنوع الأول سأكتفي بذكر مذهب عبد القاهر الجرجاني بعدّه ضمن أنصار المعنى دون الفصل بين

ثنائية اللفظ والمعنى ، إلا أن الجرجاني راح يدافع عن المعنى في سياقات كثيرة معتبرا الألفاظ خادمة للمعاني ، وأن اللفظ ليس له أي فاعلية جمالية مهما كانت أصواته وشكله ، ولذلك فالألفاظ لا تتفاضل من حيث إنها ألفاظ مفردة ، وإنما تتفاضل إذا كان معناها يلائم معنى اللفظة التي قبلها أو التي تليها يقول عبد القاهر " وهل يقع في وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، من غير أن يُنظر إلى مكان تقعان فيه ، من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ؟ ... وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملائمة معناها لمعاني جارتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفي خلافة : قلقنة ونابية ، ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفظا للتالية في مؤداها ؟ " (الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، 1991 ، صفحة 58 ، 59) . وعلى أساس أهمية معنى الكلمة في السياق ضمن معاني الكلمات الأخرى تتحدد قيمتها فرب كلمة تكون فصيحة بليغة في سياق ، وتفقد هذه المكانة البلاغية الراقية في سياق آخر .

ولتأكيد مكانة المعنى والدفاع عنه قال أن اللفظ في الكناية والاستعارة والتَّمثيل يدل على المعنى الأول والمعنى نفسه يستدل منه المتلقي على معنى ثانيا يسميه الجرجاني معنى المعنى أو المعاني الثواني التي يكمن فيها جمال الأسلوب وبلاغته وقصدية المعنى الذي يريد المتكلم إيصاله إلى السامع بعدوله عن المعنى الحقيقي إلى المجازي التداولي ، لأن القول بأن المجاز يقابل الحقيقة لا يعني الكذب الذي يخالف الحقيقة في الواقع ، وإنما يعني أن المجاز يتضمن معنى تداوليا أو فعلا غير مباشر يفهمه المتلقي أو يستلزمه المعنى الأول وهذا ما يعرف بالاستلزام الحواري . أي إن المعنى الحرفي نقول شيئا هو المعنى الأول ، والمعنى المجازي للاستعارة والكناية والتَّمثيل نعني شيئا آخر هو المعنى الثاني التداولي المقصود من طرف المتكلم أو معنى المعنى كما يسميه الجرجاني . ومن هنا تتضح مكانة المعنى عند الجرجاني عندما بحث في تداولية المجاز .

إن الفصاحة والبلاغة عائدة إلى معنى المعنى وليس اللفظ . وفي الوقت نفسه فإن ترتيب معاني النحو ترتيبا خاصا متميزا من خلال التركيب اللغوي هو الذي يجعل معنى المعنى - أي الصور البيانية - يوصف بالجمال ويرتقي إلى أفضل مستويات الفصاحة والبلاغة ، ومعنى هذا أن بنية اللفظ في الاستعارة والمجاز لا دخل لها في بلاغة النص القرآني وإعجازه ، وأن الذي يجعلها تصل إلى حد الإعجاز هو التركيب النحوي الخاضع لتوخي معاني النحو على هيئة مخصوصة .

أما النوع الثاني المعاني النحوية الوظيفية كما يسميها المحدثون، (كالفاعلية، والمفعولية والإضافة، والحال، والتَّمييز ، وتشمل أيضًا المعاني، أو الوظائف الصِّرفية)، كوظائف الصِّغ والأدوات (طبل و آخرون، 2008، صفحة 29) ، وهي ليست المعنى الغُفَل الخام [القواعد العامة]، بل هي المعنى المُصَوِّر الخاص الذي تَشكَّل في النفس، (درويش ، 1960، صفحة 74) وبعبارة أخرى هي أسلوب المتكلم وطريقته الخاصة في الكلام أو النظم وفق قواعد اللغة والنحو . " المعاني العامة إذا هي بمثابة المادَّة الخام في الصِّياغة ، فكما أننا لا نحكم على الصائغ بمجرد النظر في المادَّة التي صاغها ، بل بطريقته الخاصة في صوغها وتشكيلها ، فإن حكمنا على الشاعر أو الأديب ينبغي أن ينصبَّ على طريقته الفنيَّة في التعبير عن المعاني والأغراض " (طبل و آخرون، 2008، صفحة 33) ، بمعنى أنَّ الكلام أو الاستعمال الفردي للغة باختيار المعاني النحوية و ترتيبها ترتيبًا خاصًا متميزًا في العقل وفق مايريد المتكلم التعبير عنه من معان ودلالات هو الذي يجعل الكلام فنيا مُتميزًا في شعرته متفاوتًا في جماله إلى أن يصل درجة الإعجاز اللغوي كما هو الأمر بالنسبة لكلام الله في النصِّ القرآني .

والدارسون يؤكدون أنَّ قواعد النحو التي أنزل الله بها القرآن هي تلك التي كانت متداولة بينهم مستعملة في تواصلهم وقصائدهم الشعريَّة ، وإنَّما الذي اختلف عنهم القرآن وتميَّز هو طريقة ترتيبها في النفس وتركيبها في اللغة ، ومن ثمة فإنَّ شعرية القرآن وإعجازه يعودان إلى تفرد طريقته الخاصة في نظمه، أو تركيب كلماته ، وليس أصواته أو ألفاظه المفردة ، علما أنَّ عبد القاهر انطلق من إشارات عبد الجبار المعتزلي الذي يرى أنَّ الفصاحة لا تظهر في الكلمة المفردة وإنَّما بضم الكلمات على طريقه مخصوصة ... وأنَّ بنية اللفظ وحسن النغم في القول والاستعارة والمجاز لا دخل لهم في الفصاحة أو الإعجاز ، وأنَّ الذي يجعلها جميعًا تصل إلى درجة الإعجاز والشعرية هو التَّركيب النحوي .

وقد أفاض الجرجاني الحديث عن ترتيب المعاني في النفس كثيرًا في كتابيه : (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة) . يقول في الأول: "فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتوَّصفه البلغاء فكرًا في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد المعاني إلى فكر تسأفه لأن تجري بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن" (الجرجاني ، 1991، صفحة 156) ، ففي قوله (فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس) ، إشارة واضحة إلى البنية العميقة (deep structure) المتمثلة في ترتيب قواعد النحو عند تشومسكي بوصفها نظامًا تجريديًا فكريًا ، لا تظهر في الكلام ، أي إنَّها موجودة في عقل المتكلم / السامع بحيث تقوم بالتفسير الدلالي للكلام أو اللغة ، ومن ثمة فإنَّ المعنى يكمن في البنية العميقة كما رأينا في الآية السَّابِقة " واشتعل

الرأس شيبا " [سورة مريم : الآية 4] .

إنّ البنية العميقة بنية نحوية افتراضية تترتب فيها معاني النحو وأحكامه وتتنظم مع بعضها وفق التعلّق النحوي الممكنة ، ودون وجود التعلّق واختيار الكلمات التي تقوم بالوظائف النحوية ومناسبة معانيها المعجمية مع بقية معاني الألفاظ الأخرى في السّياق أو التّركيب اللّغوي فإنّ ترتيب المعاني النحوية لا قيمة له لأنّه سيصبح هراء لغويا سخيفا يتجلى عند النّطق بالبنية السّطحية اللّفظية . وقد وقف عبد القاهر عند التعلّق النحوي كثيرا وذكر ثلاثة أقسام :

1- تعلق إسم بإسم بأن يكون خبرا أو حالا أو صفة أو بدلا أو تمييزا أو مضافا له .

2- تعلق إسم بفعل كأن يكون فاعلا أو مفعولا بأنواعه .

3- تعلق حرف بهما .

ويتضح من هذا التقسيم استحالة تعلق فعل مع فعل ، أو حرف مع آخر ، وأنّ التعلّق بين الكلمات بضمها إلى بعضها هو العملية الإسنادية للمعاني النحوية المرتبة في النّفس (العقل) ، علما أنّ التعلّق عند الجرجاني له مستويين : مستوى يقف عند الصواب ومستوى يرقى إلى بلاغة الخطاب . علما أنّ هذه العلاقات هي صور التعلّيق التي تنشأ في التّركيب العربي وماحدّده عبد القاهر هنا هي المعاني الكلّية ، أمّا المعاني الخاصّة التي يبتكرها المتكلمون الممارسون الفعليون للغة فهي من إبداع الممارسين أنفسهم .

أما البنية السّطحية (surface structure) فقد أشار إليها في قوله (وجب للفظ الدالّ عليه أن يكون مثله في النطق) فهي تمثّل الجملة عند النّطق بها في شكل أصوات ورموز كما هي في عملية التّواصل . فإذا كانت البنية العميقة عقلية غير مرئية فإنّ البنية السّطحية بنية ظاهرة عبر التتابع الصوتي للكلمات المنطوقة .

يوضح محمد محمد أبو موسى أسبقية ترتيب المعاني النحوية وانتظامها في العقل قبل نطق الكلمات بالقول: "أنّ هذا التّرتيب والتّركيب إنّما وقع في الألفاظ على وفق المعاني المرتبة في النّفس والمنظمة فيها على قضية العقل، يعني أنّ هذا النّسق اللفظي هو صورة لنسق وراءه عقل انتظمه وأنّ بناء الكلام هو بناء فكر وعقل وأنّ ناطقية الانسان هي عقله وليست لسانه، وما دام هذا هو جوهر الكلام فيجب أن نقرأه من الجهة التي يُقرأ منها وأنّ تتحدّث فيه حركة العقل ونسق العقل، وأن ترى به، وفيه صفحة النّفس التي صاغته لأنّ النّسق اللفظي جسم صوت يجب أن تتجاوزه بعد إحكامه إلى ما وراءه من نسق فكري، وأنّ كل شيء في اللّغة وراء شيء في العقل والنّفس، حتى النّغمة، والتوقيعة الصّوتية، هي جرس نفس ولحن عقل وفكر ، لا يجوز أبدا أن نتعامل مع الكلام

شعرا أو بيانا على أنه شقشقة لسان لأنّ هذا إهذار لحقيقته، ولا بد من أن نتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس" (محمد ، 1998، صفحة 61 ، 62).

ويستدل أبو موسى بأنّ نسق العقل والفكر أسبق من نسق اللّغة واللفظ عند الجرجاني وهو يتحدث عن التقديم والتأخير، والحذف، فالذي تقدم هو الألفاظ في نظر النّاس، والصّحيح أنّ تقديمها أو تأخيرها يكون بترتيبها وانتظامها في العقل أولاً ثم ترتيبها في اللفظ "... وهي أنّنا عند التّحقيق لا نرى صحة ما يقال من وجوب تقديم بعض الألفاظ على بعض كقولنا : إنّ الخبر واجب التّقديم في مواضع كذا وأنّ المفعول واجب التّقديم في مواضع كذا، وأنّ الصّفة يجب أن تتقدم على الموصوف، وأنّ الاستفهام له الصّدارة، لأنّ ليس هناك حكم من هذه الأحكام يتعلّق بلفظ من حيث هو لفظ، لأنّ الألفاظ في ذاتها ليس فيها ما يوجب تقديمها، أو تأخيرها، أو حذفها أو ذكرها، وإنّما كل ذلك راجع إلى مقتضيات عقلية، أوجبّت ترتيب المعاني في النفس، وانتضمت على قضية العقل، فما وجب تقديمه في العقل قدّم في اللفظ، وما وجب تأخيره في العقل آخر في اللفظ، فالإقتضاءات العقلية هي الفصل وهي القانون وهي القاعدة" (محمد ، 1998، صفحة 65) وبالتالي فإنّ النّظم النّحوي هو الأول يليه النّظم اللفظي ثانياً ، فنحن نقمّ المبتدأ ، أو المفعول به ، أو الفاعل بوصفها معان نحوية أو أنساق من القواعد الصورية التجريدية في عقولنا على هذا النحو (مبتدأ + خبر + حال) ثم نمثّل لهذا النّسق ببنية لغوية سطحية كقولنا : (هذا أخوك عطوفا) . وعليه كانت البنية العميقة أسبق على البنية السطحية الصوتية اللفظية المنطوقة من أفواه المتكلمين .

وإذا جئنا إلى الإعجاز اللّغوي في القرآن فإنه يعود إلى نسقه النّحوي التّركيبي المتمثّل في حسن ترتيب المعاني النّحوية ترتيباً خاصاً في العقل مشكلة أسلوباً متميزاً يرتقي إلى قمة الفصاحة والبلاغة . والدليل على ذلك أنّ الألفاظ المفردة من حيث أصواتها و معانيها لا تدخل في فصاحة القرآن و إعجاز بلاغته .

وفي حالة إطلاقنا الفصاحة على الكلمة المفردة فإنّ ذلك يعود إلى الكلمات الأخرى التي سبقتها ، أو أتت بعدها في السياق أو التّركيب اللّغوي على طريقة مخصوصة من خلال انسجام معناها مع معاني الكلمات المجاورة لها ، وأيضاً تعلّق المعاني النّحوية لهذه الكلمات جميعها هو الذي يجعلها توصف بالفصاحة والبلاغة ، أي أنّ النّحو بمفهوم الجرجاني هو الآلية التي تنتج شعرية النّص القرآني وتمنحه جمالية التّعبير إلى حد الإعجاز اللّغوي ، والدليل على ذلك أنّ الكلمة المفردة لا جمال ولا شعرية فيها فإذا أخذنا الكلمات السابقة : (اشتعل ، الرأس ، شيبا) مفردة دون تركيبها النّحوي على طريقة مخصوصة ، لا بلاغة ولا إعجاز فيها . إلّا بتوخي معاني النّحو السابقة فيها . ومن هنا تظهر أهمية المعاني النّحوية وترتيبها وتركيبها في نظم الكلام .

إنَّ المعاني النَّحوية التي أفاض الجرجاني الحديث عنها هي أساليب التعبير المختلفة التي توفرها اللُّغة عامَّة للمتكلم ، وهي معانٍ إضافية من إبداعه هو تتعدد بتعدد المقامات والأحوال المختلفة التي تجمع المتخاطبين ، فالمتكلم يختار منها ما يناسب المعنى الذي يريد إيصاله إلى السامع، وإذا رتبها مع بعضها في العقل أولاً ترتبت الألفاظ في النطق ثانياً . و على هذا الأساس يختار تقديم الفاعل مثلاً، أو المفعول به، أو الحال مع جعله مفرداً متقدماً عن صاحب الحال وعاملها مثل : (في الدار جالسا رجل) ، أو جامداً كقولنا : (وَضَحَ الحق شمساً) ، أو حال متعددة مرَّة مفرداً في كلمة (خاسئاً) ومرَّة أخرى جملة اسمية

(وهو حسير) كما في قوله تعالى " ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير " [سورة الملك : الآية 4] ، والأمر نفسه بالنسبة للصَّيغ الصَّرْفية؛ يختار اسم الفاعل إذا كان ما يريد وصفه دالاً على التَّجَدُّد مثل : (الجندي مقاتل) ، فصفة القتال يتصف بها الجندي في زمن الحرب فقط ، أو الصفة المشبهة إذا كان الوصف يدل على الثبوت كقولنا : (الجندي شجاع) ، فصفة الشجاعة ثابتة في الجندي أيام السَّلم والحرب .

إذا جئنا إلى دلائل الإعجاز فإنَّ الأمثلة التي ساقها الجرجاني وهو يدافع عن نظريته جُلَّها تقريباً من الشَّعر أو من إنشائه رغم أنَّ الكتاب بحث في التفسير النَّحوي اللُّغوي لوجوه النِّظم التي يتحقق بها الإعجاز اللُّغوي في القرآن الكريم . والآية التي ذكرها في قوله تعالى - : " وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظَّالمين " [سورة هود : الآية 44] - ، تلخص فكرة ترتيب المعاني النَّحوية وأهميتها في تحقيق الإعجاز اللُّغوي للنَّص القرآني . وهي هنا تتمثل في اختيار (ياء النداء) دون أيتها ، و إضافة الماء إلى الكاف ، ولم يقل (ابلعي الماء) ، وجعل الأرض منادى والسَّماء أيضاً ، وأمرهما بما يخصهما ، واختار صيغة غيض على وزن الفعل المبني للمجهول بأنَّه لم يغيض إلَّا بأمر آمر، وقدرته، ويؤكد ذلك بقوله تعالى: (وقضي الأمر)، بالإضافة إلى إضمار السفينة (استوت) ، ومقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة. (الجرجاني ، 1991، الصفحات 59-60) . وفي قوله تعالى: "أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً" [الإسراء الآية 40] يتجلى الإعجاز اللُّغوي في تقديم الفعل الماضي والمفعول به و تأخير الفاعل (ربكم)، ومجيء الماضي مسبقاً بالهمزة هنا تقرير لفعل قد كان وإنكار له، أي لما كان، وتوبيخ لفاعله عليه، وقد تكون لإنكار الفعل أصلاً، ولو تقدم الفاعل (ربكم) بعد الهمزة هل ستحصل هذه المعاني؟ إن تأخير الفاعل وتقديم المفعول والهمزة قبل الماضي هي المعاني النحوية المرتبة في النفس والتي جعلت نسق الآية السابقة أو أسلوبها معجزاً: (الجرجاني ، 1991، صفحة 124) .

والأمر نفسه في الحذف، ففي قوله تعالى: "وأنّه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحي" [النجم الآية 43] فالأفعال الأربعة هنا متعدية، والمفعول به محذوف في العقل قبل النطق به للدلالة على إثبات الضحك، والإبكاء، والإماتة، والإحياء لله على الإطلاق، فلو قال أمات الناس، أو أحياء الناس لكان المعنى لا يميت الحيوان، أو النبات، ولا يحييها أيضاً. فالدلالة السابقة المطلقة آتية عن طريق حذف معنى من المعاني التحوية وهو المفعول به. (الجرجاني، 1991، صفحة 150).

6- دراسة تطبيقية لبعض الآيات القرآنية :

تشمل الدراسة الآيات التالية :

1- "ولقد هممت به وهم بها لو لا أن رأى برهان ربه" [سورة يوسف الآية 24] . ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإعجاب صادر من المرأة ، ومن النبي يوسف عليه السلام باعتباره بشراً يصيب ويخطئ ، إلا أنّ الوقوف على ترتيب المعاني التحوية يمنع هذا المعنى : فلو لا هنا حرف امتناع لوجود ، بمعنى امتنع الإعجاب من يوسف لوجود برهان ربه ، بدليل أنّ التركيب التحوي للآية قبل التقديم والتأخير: (لولا أن رأى برهان ربه لهم بها) . أمّا المرأة فقد وقعت في إعجابه .

2- " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون " [سورة البقرة : الآية 28] استعمل الله عزوجل كيف الاستفهامية وأتى بالمضارع (تكفرون) والجار والمجرور (بالله) لغرض توبيخ هؤلاء الكفرة والتعجب من رفضهم الاعتراف بوجود الله ، ومجيئ الحال جملة اسمية (وكنتم أمواتاً) للدلالة بأنهم كانوا أمواتاً بصفة دائمة مستمرة . أما اختيار (الفاء) فإنه يدل على الترتيب والتعقيب ؛ أي إنّ الله خلقهم دون وجود فاصل زمني بين العدم والخلق ، في حين أنّ (ثم) المتكررة ثلاث مرات تدل على الترتيب والتراخي ، بمعنى وجود مدّة زمنية معينة بين الإحياء والإماتة عند استكمال الآجال ، والمدّة نفسها بين الإماتة والإحياء في القبور عند البعث ، وبين الإحياء والرجوع إليه .

3- "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون " [سورة المؤمنون ، الآيات 1-5] في هذه الآيات تقدم الجار والمجرور (في صلاتهم) على الخبر (خاشعون) ، و (عن اللغو) على الخبر (معرضون) ، و (الزكاة) على (فاعلون) و (لفروجهم) على الخبر (حافظون) ، وترتيب المعاني التحوية على هذا النسق للدلالة على تخصيص صفات الخشوع على الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، والحفاظ على الفروج ، واختيار صلة الموصول جملة اسمية (الذين هم في صلاتهم خاشعون) يفيد أنّ الصفات السابقة دائمة ثابتة في أوقات الصلاة ، واللغو ،

وعند الزكاة ، وفرضا أنَّ ترتيب هذه المعاني جاءت بالقول (الذين هم خاشعون أو يخشعون في صلاتهم ...) لما أفادت الدلالات السابقة .

4- " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم " [سورة البقرة : الآية 70] . جاء الفعل (ختم) مسندا إلى الفاعل (الله) ، وتأخر المفعول به النكرة (غشاوة) وتقدم الجار والمجرور الذي تكرر ثلاث مرات (على قلوبهم وعلى ...) و تقدم أيضا الجار والمجرور (لهم) الذي جاء ضميرا على المبتدأ النكرة (عذاب) . وترتيب المعاني النحوية بهذا الشكل هو سر جمال المعنى الكنائي غير المصرح به هنا ، والمتمثل في إعراض المنافقين ورفضهم مَدْعُوا إليه من الله وحال بينهم وبين الهدى ، وكأنَّ هذه الغشاوة غطاء مضروب أو مقفول على أعينهم (لا يبصرون) ، وعلى أذانهم (لا يسمعون) وعلى قلوبهم (لا يعقلون) ، والدليل على ذلك أنه لو قال : (ختم الله الغشاوة على قلوبهم) ، وكانت المعاني النحوية : (فعل +فاعل +مفعول به +جار ومجرور) دون تكرار المجزورات الأخرى ، فإنَّ الكناية باقية إلاَّ أنَّها لا ترتقي إلى مستوى جمال الكناية الأولى ، ولا تُعبّر عن المعنى السابق لأنَّ الغشاوة في هذه الحالة تشل وظيفة القلب أما السَّمع والبصر فباقيان .

5- " فلما رآها تهتَّرَ كأنَّها جان ولي مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخاف إنِّي لا يخاف لدي المرسلون " [سورة النمل : الآية 10] يعود سر جمال هذا التشبيه إلى اختيار المعاني النحوية ، فالفعل الماضي (رأى) يتعدى إلى مفعول واحد وقع ضميرا وليس اسما ، لأنَّ الرؤية هنا بصرية وليست حلمية تتعدى إلى مفعولين وجاء الحال (تهتَّرَ) جملة فعلية تدل على وصف الحية وهي تتحرك ، واسم كأنَّ ضميرا متصلا (كأنَّها) والحال من الفعل (ولَّى) مفردا (مدبرا) ، وفرضا أنَّ الحال جاء جملة اسمية بالقول (وهي مهتزة) فإنَّ الاهتزاز يصبح صفة ثابتة لا تنقطع ، وهو الأمر الذي لا يمكن حدوثه .

6- " أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين " [سورة الزخرف : الآية 18] تتمثل المعاني النحوية المرتبة في هذه الآية في المضارع المحذوف بعد همزة الاستفهام (أو من يجعلون) ، والمضارع المبني للمجهول (ينشأ) فاعله محذوف لشهرته فيكون ذكره عبثا لأنَّ المتكلمين متفقون بأنَّ المرأة هي التي نشأت في الحلي (الذهب والفضة) ، واللاتيان بالحال جملة اسمية (وهو في الخصام غير مبين) تقدم فيها الجار والمجرور (في الخصام) على الخبر (غير مبين) لتخصيص

ضعف المرأة بصفة دائمة على الجدال فقط ، ولو جاء نسق الآية بالقول (أو من يجعلون من نشأ في الحلية وهو غير مبين في الخصام) لما أفادت المعنى السابق مع بقاء الكناية نفسها دون أن تبلغ درجة الجمال التي بلغت سابقا .

7- " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا " [سورة الإسراء : الآية 24] في هذه الآية استعارة مكنية ، المشبه هو : الذل المشبه به هو : الطائر ، حذفه وترك قرينة تدل عليه في قوله : (جناح) ، وجمالها لا يعود إلى تشبيه المعنوي بالمادي وإنما إلى ترتيب المعاني النحوية بدء بفعل الأمر (اخفض) وفاعله ضمير مستتير وجوبا (أنت) ، وتقديم الجار والمجرور (لهما) على المفعول به (جناح) المضاف إلى الذل لتخصيص صفات الذل والانكسار وما ينجر عنهما من تواضع على الوالدين وحدهما فقط . ولو قال : (واخفض الجناح للوالدين) فإنّ المعنى يكون غامضا ، أو (واخفض جناح الذل للوالدين) ، فالمعنى التواضع لهما ولغيرهما .

وعلى ضوء الآيات المدروسة في هذا السياق فإن اختيار المعاني النحوية وترتيبها ترتيبا متميزا في العقل دون الخروج عن قواعد اللغة وقوانينها العامة هي التي جعلت القرآن معجزة لغوية والأمر نفسه بالنسبة إلى تشكيل الصور البيانية في القرآن ، فجمالها لا يعود إلى اختيار ألفاظها ، وإنما المعاني النحوية المرتبة في العقل أو التراكيب النحوية التي صيغت بها الصور البلاغية . ومن هنا " فالبلاغة تنطلق بالضرورة من معطيات النحو وأصوله ، إلا أنها تدرس جانبا آخر من النحو يهمله النحاة ، وتستحضر عملا كان غائبا في أعمالهم ، ولم يدخلوه في أنساقهم الوصفية للغة " (حسن ، 2014 ، صفحة 213) . والجرجاني عندما استحضر ما كان غائبا لدى النحاة فإنه بحث في مظاهر الإعجاز اللغوي النحوي البياني ، وأدرك منذ وقت مبكر أنّ هذا الإعجاز لا يمكن فهمه إلا بالتكامل بين النحو والبلاغة وعدم الفصل بينهما . والتكامل بين المناهج والمعارف والعلوم بصفة عامة هو أحد الأهداف أو الاستراتيجيات التي تعقد الملتقيات من أجلها في عصرنا هذا منادية بعدم الفصل بين الأدب والنقد والنحو واللسانيات إلا لضرورات منهجية تنظيمية .

إنّ النحو هو الذي يصنع جمال الصورة البيانية بدليل أنّ الصورة نفسها تفقد جمالها أو جزء منه وتصير عادية كما رأينا سابقا إذا لم يتبع المتكلم ترتيب المعاني النحوية ترتيبا خاصا مطابقا لمقتضيات الأحوال والأغراض . ودراسة الجرجاني للبلاغة ليست مستقلة ، وإنما دراسة في إطار نظرية النظم أو النحو حيث ظل يوضح كيف يؤثر اختيار التركيب النحوي في تحديد المعنى ، ويسهم في بلاغة التعبير فهو المسؤول عن إنشاء الأساليب الفنية الراقية ، والصور البلاغية التي يعجز البشر عن الاتيان بمثلها لأنها تخطت النحو العادي إلى النحو الامتيازي " النحو عند عبد القاهر الجرجاني نحوان أولهما نحوي لغوي ، وثانيهما نحوي بلاغي ، والصواب عنده صوابان ، أولهما صواب عادي لا تتعلق به الفضيلة ، والثاني صواب امتيازي تحصل به المزية وينتج سحر البلاغة وشرف البيان " (بومنجل ، د ، ت ، صفحة 77) ، ومعنى هذا أنّ المتكلم في مستوى الصواب النحوي الامتيازي يملك الامكانيات

الجمالية اللامحدودة للتركيب والترتيب فيتفنن في البناء اللغوي ، ومن ثمة فإنّ اتّباع معاني النّحو وترتيبها وتركيبها تركيباً خاصاً قبل التّلفظ بها هو الآلية التي تنتج شعرية اللّغة وتصنع لها جمالها وبلاغتها . ومن هنا فالجرجاني لم يؤسس نظرية النّظم فقط ، وإنما شعرية النّظم حظيت باهتمامه كثيراً مؤسساً نظرية نقدية هي الشعرية .

و تفسير الشّعريّة (La poetique) أو الجمالية بأنّها عائدة إلى ترتيب المعاني النّحوية في النّفس قبل ترتيبها في الألفاظ أساسه فلسفة عبد القاهر النّحوية التي جعلها مرجعية لتفسير الدلالة ، والبلاغة (الصور البيانية) ، والأسلوبية والنقد (شعرية اللّغة وجمال أساليبها الفنية الراقية) ، حيث بلغ مستوى التنظير وهو يؤسس نظرية النّظم أو التركيب النحوي وبها فسر وأنشأ نظرية أخرى هي الشّعريّة أو شعرية النّظم .

7- خاتمة :

نخلص في نهاية هذا المقال إلى جملة من النتائج على النّحو التالي :

- معرفة وظائف المعاني النّحوية وفهمها داخل التركيب اللغوي عامل حاسم في تحديد معاني آيات الذّكر الحكيم .
- النّحو الامتيازي هو الآلية التي أنتجت شعرية النّص القرآني وجمال بلاغته عند عبد القاهر الجرجاني .
- ترتيب المعاني في النّفس قبل ترتيبها في الألفاظ في نظرية النّظم إشارة ضمنية إلى البنية العميقة والسّطحية في النّظرية التّوليدية التّحويلية لتشومسكي .
- العمل على قوانين النّحو وأصوله بعد معرفة مناهجه إشارة أيضاً إلى الكفاءة اللّغوية والأداء الكلامي عند تشومسكي .
- للمعنى مكانة كبيرة عند الجرجاني حيث دافع عن أسبقيته عن اللفظ ، وترتيب معاني النّحو قبل الألفاظ ، وبَحَثَ في المعنى المجازي التّداولي مؤسساً بذلك ليس نظرية النّظم فقط باعتبارها أساساً لنظريات أخرى وهي النّظرية الشّعريّة الجمالية وإنّما نظرية المعنى .
- درس الجرجاني الإعجاز اللّغوي معتمداً على النّحو والبلاغة والنّقد مجسداً بذلك التّكامل المنهجي والمعرفي بين هذه التّخصصات .

8- المراجع :

1. الجرجاني ، ع .(1991) *دلائل الإعجاز* .الجزائر :المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر .
2. بومنجل ،ع) .د ،ت .(*تأصيل البلاغة ، بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية* .سطيف الجزائر منشورات مخبر الثقافة العربية في الأدب ونقده .
3. حسن ، ا .(2014) *بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب* .Vol. ط.(1المغرب : دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع.
4. درويش ، ا .(1960) *نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم* .القاهرة مصر :مكتبة النهضة .
5. طبل ، ح & ،آخرون .(2008) *بلاغة النظم القرآني* .القاهرة مصر :كلية العلوم جامعة القاهرة .
6. محمد ،م .(1998) *مدخل إلى كتاب في عبد القاهر الجرجاني* .Vol. ط.(1القاهرة مصر :مكتبة وهبة القاهرة.